العم نجيب... سيرة حداثة ضلت دروبها

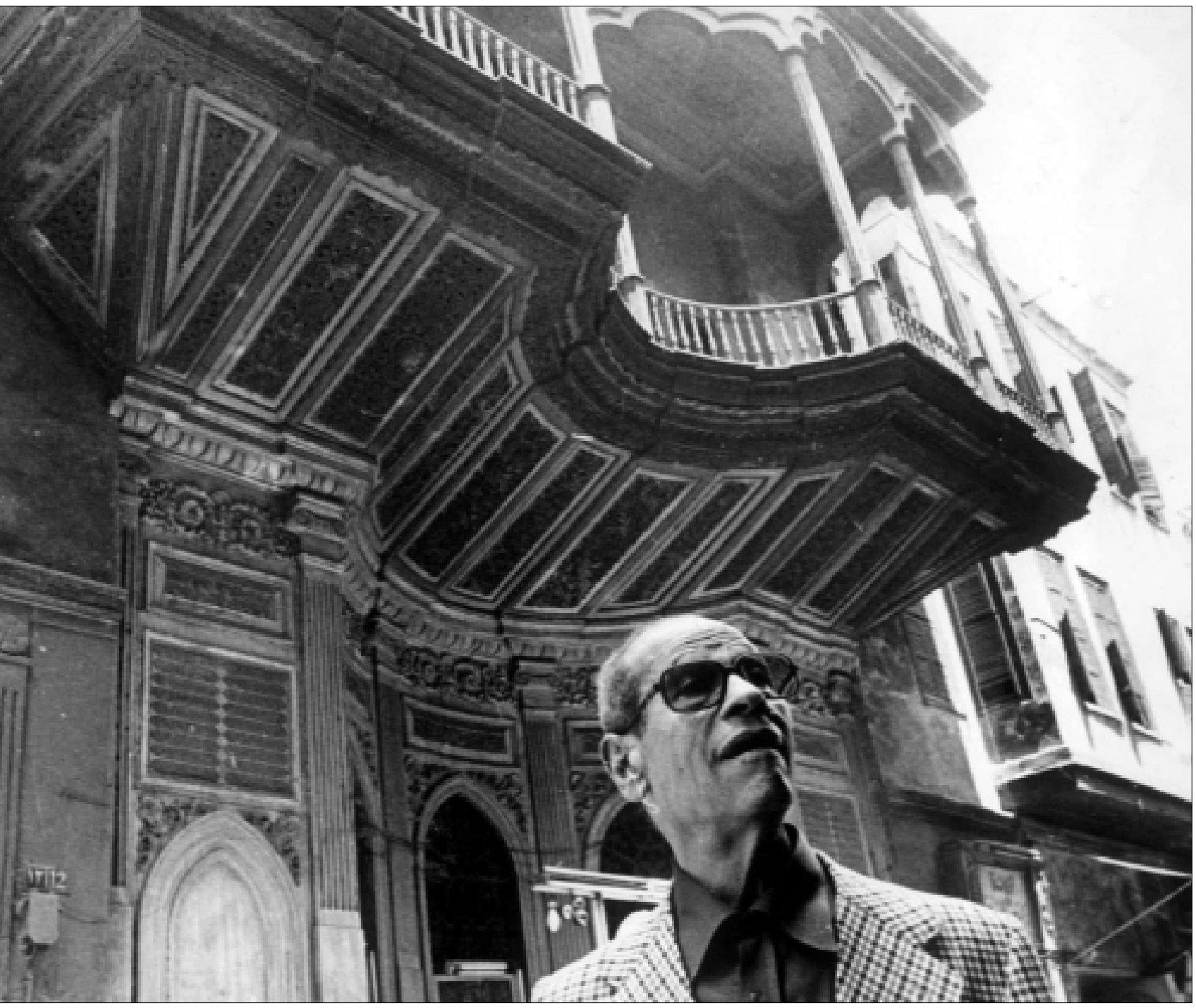

في الجمالية عام 1988 يوم حصوله على «نوبل»

القاهرة ـ **محمد شعير**

أي محاولة لفهم التاريخ المصري الحديث، ستكون ناقصة تماماً إذا تعاملنا فقط مع كتابات المؤرخين ومذكرات الساسة، وأخبار الصحف أو حتى الوثائق المعتمدة والمختومة بختم النسر.
الفن وحده القادر على الإصغاء إلى الهمس، إلى الأنين، والغوص في ما لا تدركه العين وحدها. وهكذا لا يمكن فهم المجتمع المصري الحديث بدون قراءة روايات نجيب محفوظ (1911 ـ 2006). قد يراها المؤرخون مصادر ثانوية لدراسة التاريخ، لكنها في الواقع هي التاريخ الحديث لمصر، بل هي أقرب إليه من التاريخ الرسمي. لم يكتب محفوظ من موقع التوثيق، لم يقدم رصداً واقعياً يضعه في خانة كتاب الواقعية التي تهمل الجمالي لصالح الفكرة، بقدر ما كان اللعب في الفن مقصده الرئيسي، ثم الوعي بالتاريخ ومكره.
تمتد حياة محفوظ وتتسع سيرةً لحداثة عربية ضلت دروبها. كيف كان الوطن؟ وكيف أصبح؟
في المشهد الأول من «زقاق المدق»، يتخلى صاحب المقهى عن الراوي الشعبي الذي ينشد كل ليلة لرواد المقهى، لصالح الراديو، ذلك الاختراع العجيب في ذلك الوقت. يرصد محفوظ بدقة كيف تعامل المصريون مع الحداثة، وكيف أزاحت الماضي. وفي الثلاثية، نكاد نسمع أصوات القنابل بين المحور والحلفاء، ونقاشات المصريين عن «هتلر القادم لتخليصهم من أنياب الاحتلال». نرى الثورة تطل من كل بيت بعد نفي سعد زغلول.
أما في الستينيات ـ سنوات مجد محفوظ وصعوده ـ سيكتب أجرأ أعماله، رواية تفضح الديكتاتورية، وتنتقد تأميم المجال الواحد في تلك المرحلة: «استحوذ الخوف على الناظر ورجاله، فبثوا العيون في الأركان، وفتشوا المساكن والدكاكين، وفرضوا أقسى العقوبات على أتفه الهفوات، وانهالوا بالعصي للنظرة أو النكتة أو الضحكة، حتى باتت الحارة في جو قاتم من الخوف والحقد والإرهاب» كما يكتب في «أولاد حارتنا». لكن محفوظ كان يحمي نفسه. روايته حيادية، تبدو كأنها لا تتهم، أو توجّه. رواية يتحمل أبطالها عبء ما يقولون ويفعلون لا كاتبها.
عاش عصر سلاطين، وملوك ورؤساء، عاصر ثورات وانقلابات، وحروباً وطواعين، ومآسي.. عايش التقلبات السياسية والمنعطفات الحاسمة، الثورات والأنظمة والحروب، من النكسة الى الاستنزاف وحرب أكتوبر، من ثورة 19، إلى يوليو 52 الى كامب ديفيد، ومن «نوبل» الى الخنجر الغادر الذي جاءه من الخلف. استطاع أن يصمد في وجه التقلبات والعواصف والتغيرات التي أصابت المجتمع والثقافة، صموده في وجه الحقد الأصولي.

هؤلاء رشحوه لـ «نوبل»

رغم مرور 30 عاماً على حصول نجيب محفوظ على جائزة «نوبل»، إلا أن قائمة الاتهامات لم تخفت يوماً. اختصر الإسلاميون الجائزة بأنّها تكريم لهجومه على الدين والذات الإلهية في روايته «أولاد حارتنا». ورأى القوميّون أنها تتويج لدعوته للسلام مع الكيان الصهيوني. ورأى أدباء مثل يوسف إدريس وإدوار الخراط أنّه كاتب محدود القيمة الفنية، روايته محلية الفكر، متوسطة القيمة بالمعايير التي تقاس بها الأعمال الأدبية العظيمة.
كعادته، تجاهل محفوظ الهجوم عليه، دافع عن «أولاد حارتنا» بعدما تعرض لمحاولة اغتيال عام 1994 على يد مهووس إسلامي. وكشف لجريدة «أخبار الأدب» (30 نوفمبر1997) تفاصيل لم يذكرها قبلاً: «وأنا في «الأهرام»، زارني مطلع الثمانينات، قبل حصولي على «نوبل» واحد من السفارة الإسرائيلية لا أذكر اسمه. وعرض عليّ الترشح لجائزة عالمية كبرى حصل عليها الأديب البريطاني غراهام غرين، وقال إنهم يفكرون في منحي الجائزة، وأنه جاء يستأذن، قلت له: إنني شاكر جداً لكنني أعتذر لأن ربط الجائزة بدفاعي عن السلام أمر لا أقبله، إذ أنه موقف مبدئي وليس من أجل الجوائز». كانت الجائزة التي يقصدها محفوظ هي «جائزة القدس الدولية». في الحوار ذاته، قال محفوظ: «بعد حصولي على «نوبل»، كتب لي شيمون بيريز خطاباً رقيقاً يقترح فيه أن أرشح لـ «نوبل» روائياً إسرائيلياً اسمه عموس عوز، وقد ترجمت إحدى رواياته إلى العربية. أجبته في رسالة معتذراً وقلت إنّ عاموس عوز سيجد من يرشحه لـ «نوبل»، ولكن إذا كان لا بد من أن أرشح أديباً لـ «نوبل»، فأفضل أن أرشح عربياً».
كذلك، فإنّ موقف محفوظ من التفاوض مع العدو كان سابقاً تفكير السادات في كامب ديفيد. إذ دعا في 1968 في مقال له إلى التفاوض لتحرير سيناء إذا لم يكن بمقدورنا الحرب. كرّر هذا الكلام في لقاء جمع عدداً من المثقفين المصريين بالقذافي في جريدة «الأهرام» عام 1971 . لم يكن موقف محفوظ استثنائياً، فكل أبناء الجيل الليبرالي الذي نشأ وتكوّن في ظل ثورة 1919، وانتمى إلى أفكار حزب «الوفد»، لم يكن لديه مشكلة في التفاوض مع العدو. بل إن «الوفد» نفسه كان نتاج معركة اختيار مجموعة من أبناء الشعب المصري للسفر إلى بريطانيا (دولة الاحتلال) للتفاوض من أجل الجلاء.
من هنا يمكن أن يكون مبرراً موقف محفوظ من تأييد كامب ديفيد. لم يكن نتاجاً لنفاق سلطة، أو بحثاً عن جائزة. الغريب أن إسرائيل التي يقال كثيراً بأنّها تتحكم بمنح جائزة «نوبل»، لم تستطع منح أي من أدبائها الجائزة، وكان أول وآخر أديب إسرائيلي حصل على الجائزة هو شموئيل يوسف عجنون عام 1966 مناصفة مع السويدية نيلي زاكس الحاصلة على الجنسية الإسرائيلية أيضاً. وهو العام نفسه الذي ظهر فيه اسم محفوظ على قوائم ترشيحات الجائزة للمرة الأولى مع طه حسين وتوفيق الحكيم. ولكن كان عليه الانتظار 22 عاماً ليتوج بجائزة تأخرت طويلاً. وكان مدعوماً من جهات عدة أهمها قسم الدراسات العربية في «جامعة السويد» الذي كان يرأسه الناقد المصري عطية عامر، وهناك الناقدة الفلسطينية سلمى الخضراء الجيوسي التي صرحت بأن الأكاديمية السويدية طلبت منها عام 1985 تقريراً عن الكتّاب العرب المستحقين لـ «نوبل» وأنها دعمت محفوظ وأدونيس. وهناك المستعرب الأميركي روجر آلان الذي أشار في أحد حواراته إلى دعمه لمحفوظ، والمترجم ديفيد جونسون الذي كتب عن لقاء جمعه بالسفير السويدي في تونس للحديث عن الكتّاب العرب الذين يستحقون «نوبل» منهم محفوظ. وهناك جامعتا «جورج تاون» والـ «سوربون» وبعض الجامعات الأوروبية والروسية التي قدمت تقارير عن استحقاق صاحب «الحرافيش» للجائزة.

م. ش